في الأدب المقارن

البطـــولة

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

البطل فرد يمتاز عن غيره من أفراد مجتمعه بمواهب عقلية أو خلقية أو جسدية، يظهر بها بينهم وينال من أجلها إجلالهم وبذلها في خدمتهم ويتولى قيادتهم في معترك الحياة ردحا من الزمن، ويترك في تاريخهم أثرا يطول عهده أو يقصر؛ فالبطل لا يكون إلا في مجتمع، وهو عادة نموذج لصفات أبناء ذلك المجتمع ومثل أعلى لنوع حياتهم، ومواهبه إجابة لمطالب ذلك المجتمع وحاجاته في فترة من الزمن، فالأمة المحاربة إذا كانت تجرى الحياة في عروقها قوية وتتمتع بالصفات اللازمة للبقاء ينبغ فيها القائد، والأمة الشاكة الحيرى يظهر فيها النبي. والشعب الذي يشكو فساد أنظمته الاجتماعية يقوم فيه المصلح

والأمة المتبدية الساذجة التي لم تستقر بعد ولم تبرح حياتها سلسلة متواصلة من الحروب، لا يكاد يظهر فيها من أنواع البطولة إلا القواد البسلاء، الذين يقودونها في مهاجراتها ومحارباتها لجيرانها، ويبدون من ضروب الشجاعة ويفتقون من أفانين الحيلة والرأي والمكيدة ما يبلغون به الفرصة في أعدائها؛ ولأولئك الأبطال في تلك الجماعات مكانة لا تطاول وأثر لا يبارى وكلمة لا ترد، وإن أحدهم ليغني غناء الجحافل، ويعدل بين قومه ما لا تعدل الآلاف، ولا غرو: فالحروب في أمثال تلك العهود أكثرها مصاولات فردية، وتسمى تلك العهود لذلك عصور الأبطال

وفضلا عما يناله البطل في عصره من تبجيل وتقديم، فإنه إذا ما مات وخلا مكانه وافتقد مثاله، زاد ذكره ارتفاعا وزاد ذاكروه مبالغة في تعظيم آثاره وتصوير وقائعه وتخيل صفاته ومواهبه، وما يزال جيل يزيد على جيل حتى تقوم حول بعض الأبطال أقاصيص طويلة السرد، تنطوي على شيء من الحقيقة الأولى ويتكون أغلبها من صنعة الخيال ومما تصبو إليه النفس الإنسانية دائما، من أمثلة القوة والشهامة والنجدة والغلب وحماية الذمار، وما تتوق دائما إلى تصوره من روائع المشاهدات، وجسام الوقائع؛ بل كانت بعض المجتمعات البدائية تغالي فترتفع بأبطالها إلى مصاف الآلهة، كما فعل أوائل قدماء المصريين بأوزيريس وأخته وابنه، وكما فعل أوائل الاسكندناويين ببطلهم أودين، أو إلى مراتب أنصاف الآلهة كما فعل الاغريق القدماء بأبطالهم

وإذا ما استقرت الأمة وتحضرت، وجنحت إلى السلم ولم تعد الحرب هي الحالة الطبيعية العادية التي تعيش في ظلها، تغيرت حالها الاجتماعية وضؤلت مكانة أبطال الحرب قليلا وزاحمهم أبطال السلم من أنبياء ومصلحين ومشرعين وحكام وأرباب علم وفن، وهبطت قيمة القائد في الجيش قليلا فلم يعد هو وحده المهيمن على مصائر الحرب بل صار للعدد والنظام والسلاح وغير ذلك حساب كبير؛ وبطل تصديق المتعلقين بوقائع الأقاصيص المتخلفة عن عصور الأبطال؛ ولكن البطولة على صورة من الصور خالدة، وعبادة الناس في كل العصور لها قائمة، بل إن احتفاء الأمة بأبطالها من أبرز دلائل حيويتها، كما أن من دلائل حيويتها حفول تاريخها بأسمائهم، بل يغالي كارليل ويزعم أن تاريخ الأمة هو تاريخ أبطالها، وتاريخ العالم إن هو إلا سير الأبطال

وتلك الأقاصيص المتخلفة عن عصور الأبطال إذا فقدت اعتقاد الناس بصدق كثير مما فيها فما فقدت إلا هينا يسيرا، ولن تفقد ما يعج به من روائع الأوصاف وبدائع الصور وممتع الأخيلة وشائق المواقف والوقائع، والعرض الصادق لأحوال المجتمعات المتخلفة عنها تلك الآثار، والتأمل في طبائع الإنسان ومذاهبه في الحياة؛ فتظل تلك الأقاصيص تحفظ لنفاستها، وتظل كنزا ثمينا لقرائح الأدباء وأخيلتهم، يطيب لهم الهيام في عالمها البعيد، وإجراء أفكارهم على ألسنة أشخاصها العظماء، واستعارة وقائعها وتشاهدها في التمثيل لوقائع عصورهم وأحداثها، وإبراز معانيهم وأغراضهم بالإشارة إلى حوادثها وملابساتها؛ وخير مثال لكل ذلك عصر الأبطال في بلاد الاغريق:

فعصر الأبطال في بلاد الأغريق، الذي امتد زمن استقرارهم في شرقي البحر الأبيض وتشريهم حضارته، هو أشهر عصور

الأبطال وأسيرها ذكرا ، لأن أشعار هوميروس قد خلدت روائع الصور لأحوالهم وعظائم أبطاله، وبدائع الأوصاف الشاملة لمعتقدات القوم وتصوراتهم لآلهتهم ؛ حتى إذا ما انقضى ذلك العصر وبرزت اليونان فى عالم التاريخ الواضح وطلعت فى عصرها الذهبى وحلت الفلسفة محل الخرافة ، وبطل الاعتقاد بكثير من أخبار الالياذة والاوديسة ، اتخذت أشعار الملاحم تلك مادة لضرب جديد من الأدب هو الدرامة ، التى ظهرت لتسد من حاجة ذلك العصر مالم يعد يسده شعر الملاحم الذى يلتفت إلى الماضى ويتوفر عليه ، ولا يعير الحاضر التفاتا

وكلتا الأمتين العربية والانجليزية قد مرت فى استقرارها وتحضرها بعصر أبطال ترك أثره فى أدبها : وعصر الأبطال فى التاريخ العربي هو عهد الجاهلية الذى انتهى بظهور الإسلام وظهور الأمة العربية فى ضوء التاريخ المستيقن ، فالجاهلية العربية شديدة الشبه بالعصر الهوميرى : فيه كانت الأمة منقسمة على نفسها لاتفتر عن القتال ، ولا يزال يظهر فيها من الأبطال أمثال عنترة ومهلهل ودريد بن الصمة ، ولا تزال تتحدث بأيام المواقع وتتفاخر وتتنافر كما تفاخر أبطال الحروب الطروادية ، ولولا أن الإسلام وضع حدا فجائيا لذلك العصر ، لما بعد أن تتجمع أشعاره وأقاصيصه فى ملحمة أو ملاحم كبرى ؛ وكان العرب على فترتهم يشعرون بوحدتهم فى الجنس واللغة ويجتمعون فى مواسم الحج وأسواق التجارة والأدب ، كما كان اليونان يجتمعون فى دلفى وأوليمبيا ، وكما كان اليونان يزدرون غيرهم ويلقبونهم بالبرابرة كذلك كان العرب يعتدون بعربيتهم ويلقبون غيرهم بالأعاجم ، ولم يفتهم أن يجمعوا شملهم تحت لواء العربية لدفاع الفرس فى موقعة ذى قار ، كما فعل الاغريق من قبل إذ تجمعوا بزعامة أثينا لرد عادية الفرس أيضا ، وفى موقعة ذى قار يقول الأعشى :

لما أمالوا إلى النشاب أيديهم ... ملنا ببيض فظل الهام يقتطف
وخيل بكر فما تنفك تطحنهم ... حتى تولوا وكاد اليوم ينتصف

ومر الانجليز بمثل ذلك العصر فى عهد استقرارهم فى الجزيرة ، وأهم الآثار الأدبية المتخلفة عن ذلك العصر ملحمة بيولف التى تصف كيف تغلب أمير انجليزى على وحش هائل أقض مضاجع بعض الملوك المجاورين ، وذلك العصر فى التاريخ الانجليزى شديد الغموض ، ولغموضه ذاك رُدّت إليه خرافات لعلها لم تكن منه فى شىء ، كقصص الملك آرثر وفرسان مائدته المستديرة ، وهى قصة قد نالت من احتفال أدباء الانجليزية ما لم تنله قصة بيولف ، لسذاجة هذه وشدة إمتاع تلك ، واحتوائها على كثير من تقاليد العصور الوسطى وأنظمة فروسيتها ومغامراتها

ولما ظهر الأدب الانجليزى الحديث ، بعد انتشار الحضارة والعلم ، اتخذ الشعراء والروائيون من تراث العصر السابق مادة لخيالهم ، ولم يكتفوا بذلك بل استعاروا خرافات عصر الأبطال الاغريق مضافا إليها تاريخ الاغريق والرومان ، مما انطوى عليه ذلك التاريخ من سير الأبطال ، فخفل الأدب الانجليزى بذكر البطولة وتمجيد الأبطال ، سيان انجليزيهم وأجنبيهم ، تاريخيهم وخرافيهم ، عجّت بذكر هؤلاء وأولئك روايات شكسبير ، وتفنن سبنسر وتيسون فى سرد قصص آرثر وفرسانه ، واستعار شلى أبطال اليونان وآلهتهم لبعض مواضيعه ، كما فى قصيدته « بروميثيوس المقيد » ، ولم يألُ سكوت جهدا فى تصوير بطولة القرون الوسطى فى قصصه

تناول الأدباء سير أولئك الابطال بالدراسة الفنية لشتى الاسباب : لما رُكب فى الطبع الانسانى من عبادة الأبطال والشغف بحديثهم ، ولما يُضفيه مجدهم وبأسهم على الموضوع المتناول من عظمة وجلال ، ولما يبعثه حديثهم فى النفس من تسام وصبو إلى المثل الأعلى ، وما يبثه ذكر أبطال الوطن فى نفوس أبنائه من فخر وثقة ؛ فلعبادة البطولة فى إطلاقها وتمجيد العظمة الإنسانية فى عمومها تناول شكسبير سير قيصر وبروتس وكريولانس وعطيل بالوصف ، وكتب ماثيو ارنولد قصيدته الطويلة سهراب ورستم ، ولتبجيل البطولة القومية والاعتزاز بأبوة الوطن الذين شادوا مجده تناول شكسبير مواقف هنرى الخامس فى حرب مائة العام ، وألف سكوت قصصه الاسكتلندية مثل خرافة منتروز وكونتين دروارد

ولم يقتصر أدباء الانجليزية فى تمجيدهم للبطولة واحتفائهم بالأبطال على الماضى الخرافى أو التاريخى البعيد ، بل التفتوا إلى الحاضر والماضى القريب ، ووفّوا أبطال جزيرتهم الذين وطدوا مكانتها وأعلوا كلمتها حقهم من الذكر والتعظيم ، فى جانبى المنثور والمنظوم ؛ بل كان الابطال الخرافيون يستعارون أحيانا رموزاً

للعظماء المعاصرين ، كما فعل ادموند سبنسر فى قصته الشعرية « الملكة الحسناء » . وكما قيل إن شكسبير قد قصد من الرمز لشخصية هملت إلى شخصية إرل إسكس ؛ وقد احتفل سوذى وكاميل وتنيسون وما كولى بتمجيد أبطال الانجليز وعظمائهم فى البر والبحر أمثال نلسون وولنجتون وكلايف . وكتب كارليل كتابه « الأبطال وعبادة الابطال » فأسهب فى الكلام على مظاهر البطوله فى شتى الأزمان والأمم ، وأثر الأبطال فى تقدم العمران البشرى وما هم جديرون به من حفاوة

فالأدب الانجليزى ، بعد انقضاء عصر الأبطال المحاربين ، لم يخل من ذكر البطولة وتمجيد الأبطال ، بل ظل معنيا بأبطال الماضى ولم يجعل الحاضر دبر أذنه : لأبطال الماضى البعيد بوقائعه الخارقة التمجيدُ والتصوير الفنى المبالغ المغرق فى الخيال والشاعرية ، ولأبطال الحاضر التكريم والتأريخ الذى هو أدنى إلى الحقيقة دنوّ عصرهم من الأذهان ، وأبعد عن الخرافة والخيال بُعدَ الإنسانية عن عصور طفولتها ؛ أما فى الأدب العربى فقد انقطع ذكر الأبطال أو كاد بانتهاء عصر البطولة الجاهلية : أهمل الأبطال الجاهليون أو فازوا بالنظرة العابرة والذكرة العارضة ، ولم يكن أبطال الإسلام أوفر منهم حظا من عناية الأدباء ، مهما كان نصيبهم من اهتمام المؤرخين ومكانهم فى التاريخ

ولم يخل تاريخ العرب بعد الاسلام من أبطال يمجدون وتنسج حولهم القصائد الطوال ، ولا أقفر تاريخهم من حوادث مملوءة بالوحى الشعرى الصادق ، بل إن تاريخ نهضتهم وبسط سلطانهم لَهُوَ ملحمة التاريخ الكبرى التى تزرى بكل ملحمة ، وتسخر من الوقائع الموضعية الضئيلة التى حاك حولها هوميروس قصيدهُ الفاخر ، وقد أنجبت تلك النهضة ـ بعد شخصية الرسول الكريم التى لم يجد بمثلها الزمن ـ نخبة من أبطال السلم والحرب ، كخالد وعمر وعلى وابن العاص ومن عاصرهم وتلاهم من فحول الابطال الذين لم تنجب أمة أعظم منهم ، واحتوى تاريخ العرب على سير أفذاذ يستفزون الوحى الشعرى خاصة ، لما انطوت عليه سيرهم من طرافة وجاذبية : كالحسين الذى استشهد على أسنة الرماح آبيا أن يستأسر ، وصلاح الدين الذى رفع لواء الاسلام وقصم ظهر الصليبيين فى سورية ، وعبد الرحمن الداخل الذى شاد من الفوضى دولة من أزهر دول التاريخ ، ومحمد بن القاسم ، الذى فتح السند وهو يافع والذى قيل فيه :

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة يا قرب ذلك سؤددا من مولد

ولكن الأدب العربى قد نبذ ذكر أولئك جميعاً ظهريا ، ولم يحتو من ذكر البطوله والحماسة والحروب إلا على وقائع ثانوية كفتح عمورية وأعمال أنصاف الأبطال ، كبدر بن عمار ، وغيره من ممدوحى الشعراء الذين كانوا يطمعون فى رضاهم ونوالهم ، فجاء مدحهم لهم شديد التكلف مغرقا فى التهويل ؛ أما إذا لم يكن نوال ولا سلطان حاضر فلا بطولة تستهز نفس الشاعر ، ولا عظمة تستدعى إعجابه وتستجيش وحيه ، ولا يَرِد ذكر عظماء الجاهلية فى القصيد إلا مستعارةً صفاتهم وفضائلهم للممدوح مهما ظهرت فضفاضة عليه داعية إلى السخرية ، بل كان أولئك العظماء يُزدرَوْن فى مواقف الملق لأرباب السلطان : فقد قيل إن بعض الحضور عاب على الطائى تشبيهه ممدوحه « بأجلاف العرب » حين أنشد سينيته فى مدح احمد بن المعتصم فقال منها :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

ومن مثل هذا الحديث تتبين بعض أسباب إعراض الأدب عن حديث البطولة : كالتكسب بتملق أمراء أنانيين يأبون إلا أن يكون كل المدح لهم ؛ بيد أن هناك سببا أهم هو انعدام روح القومية بين العرب : فقد كانت العصبية القبلية فوق القومية العربية فى عصر الجاهلية ، فلما وحد الاسلام العرب تحت لوائه وحض على التآخى ونبذ العصبية ، لم يستمر العرب دولة واحدة مستقلة منعزلة زمنا طويلا كافيا لتوحد عناصرها توحدا صحيحاً ، واعتناقها جميعاً للقومية العربية مكان العصبية القبلية ، بل اندفعوا وهذه العصبية ما تزال على أشدها يفتحون شرقى العالم وغربيه ، فإذا هم فى بضع سنين يموجون فى امبراطورية مترامية ، ضلّت قوميتهم العربية فى قومياتها المتعددة ، وظلت عصبيتهم المتأصلة تستأثر بولاتهم وتثير الفتن بين قبائلهم ، وكان هذا التناحر القَبَلى من أكبر أسباب انتصار الفرس ، ووثوبهم إلى السلطان على أيدى العباسيين

فالمجتمع العربى عرف العصبية القبلية الضيقة الحدود

والامبراطورية العالمية الفضفاضة الجوانب ، ولم يعرف القومية العربية التي تسمو على العصبية وتفخر بأبطال العرب الغابرين من أي الأحياء كانوا ، والتي تضيق دون مدى الامبراطورية الواسعة ، التي لا يجمعها ماض واحد ولا تشترك في تراث عمراني ثقافي فرد . فلم يكن العربي المسلم يفخر بأبطال العرب المشتركين كابن الوليد وابن الخطاب قدر ما يفخر بآبائه الذين تنتسب إليهم قبيلته . فابن الرومي في القرن الثالث يمدح أبا الصقر فلا يفوته أن يمدح قبيلته شيبان ، وأبو الصقر يرى أن ابن الرومي لم يوف شيبان حقها فيحرمه العطاء ، وأبو فراس في القرن الرابع يفخر ببني حمدان الذين يراهم لم يخلقوا إلا « لمجد أو لبأس أو لجود » ، ولا يرد ذكر العرب في شعره ، وهذه النزعة القبلية الضيقة لا تنتج شعر بطولة فنياً راقياً ، بل تنتجه الروح القومية المتدفقة

إنما كان الدين يحل محل القومية من نفوس العرب ، ومن ثم كان له في أدبهم أثر بعيد المدى ، ولذلك نرى أن جانباً عظيماً مما قد ندعوه شعر بطولة في العربية يدور حول أعظم الشخصيات الدينية في الاسلام بعد الرسول الكريم ، شخصية الامام علي ، وشخصيات أبنائه : فني الأشعار التي تندب مصارعهم — رغم اتسامها بالحزن والفجيعة ، وقلة ما تسجله من عظائم أولئك الأبطال الذين نهضوا في الحقبة بعد الحقبة ، وساروا إلى الموت مملوئين ثقة وبسالة — تمجيد صادق الشعور للمثل العليا مشخصة في أولئك النفر الغر الميامين ، ولدعبل وابن الرومي وغيرهما أشعار حارة فيهم ، ومن ذلك قول الأول :

وليس حي من الأحياء نعلمه من ذي يمان ومن بكر ومن مضر
إلا وهم شركاء في دمائهم كما تشارك أيسار على جزر
قتل وأسر وتحريق ومنهبة فعل الغزاة بأرض الروم والخزر

وسبب آخر عظيم الأثر في خلو الأدب العربي من تمجيد البطولة ، هو أن هذا الضرب من الأدب ضرب فني يحتاج في ممارسته إلى تفرغ وطول معاناة وكثرة مراجعة ، ومثل هذا الفراغ لم يتهيأ لأدباء العربية ، ومثل هذا العكوف أو الترهب الفني الذي حظي به ملتون ووردزورث وتنيسون وغيرهم من شعراء الانجليزية لم يفز به شعراء العرب وكتابهم ، أضف إلى ذلك أن الأدب العربي كان دائماً يؤثر التقليد ويحجم عن اتخاذ مواضيع أو صور جديدة لم يرثها عن العرب الأولين ، ولهذه النزعة المحافظة قد نفى من حظيرته كثيراً من فنون القول ومنادح الفن ، لم يرها من شأنه ولم يحسبها جديرة بالتفاته ، لأنه لم يرثها عن الأقدمين ولم يطلع على أدب الأغريق فيقف على بدائع النظم التي تأتي من ذلك الباب

وكان الأدب العربي كلما نفى من حظيرته باباً من أبواب القول يمت إلى الطبيعة الانسانية بسبب لا يجد ، ويروي من النفس البشرية غليلا دائم الحاجة إلى الري ، تلقفه عنه الأدب العامي فنهض عنه بالعبء الذي طرح ، وآثر إرضاء النفس الانسانية حين آثر الأدب الفصيح إرضاء التقاليد ، ومن ثم حاك الأدب العامي ، أو الخيال العربي ، حول أبطال الجاهلية كعنترة وكليب ، وعظماء الاسلام كعلي بن أبي طالب وهرون الرشيد ، روائع قصص البطولة ومنازلة الصناديد ومقابلة الانس والجان واجتلاء أسباب المتعة والبهجة والفكاهة ؛ وما كان بالأدب العربي الفصيح قصور عن ذلك الضرب من القول لو أراده . انظر إلى روعة الوصف في قول المتنبي :

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه
وفي أذن الجوزاء منه زمازم

وقول ابن هانيء الاندلسي في جيش جوهر :

اذا حل في أرض بناها مدائناً
وإن سار عن أرض ثوت وهي بلقع

فهذا وصف للجيوش لن تحوى أبلغ أشعار الملاحم أروع منه ، ولا غرو : فقد كانت المادة متوفرة لأدباء العربية لينسجوا من أحاديث البطولة وأوصاف المواقع ما شاءوا ، فقد تفنن المسلمون في وسائل الحروب البرية والبحرية وحازوا فيها غايات السبق ، والدول والانقلابات كانت تتوالى على أعين الأدباء تباعاً واللغة العربية الرحبة المساعدة بالألفاظ ، الغنية بالاوزان الرصينة والقوافي المتعددة ، خير معوان على نظم قصيد الملاحم ووصف عظائم الابطال ، فلو التفت الشعراء إلى هذا المجال من القول لرأوا سعة ولكنهم أغفلوه فيما أغفلوا ، وعدوا البطولة والابطال شأناً من شؤون التاريخ ، لا فناً من فنون الأدب

فخري ابو السعود